

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الترجمة العربية

تحتل كتب الرحلات مكانة هامة في ثبت المصادر التي تتضمن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب في مختلف العصور، ومع ذلك فإنها لم تجد العناية الجديرة بها من قِبَل المشتغلين بالدراسات التاريخية والاجتماعية، رغم ما تحفل به هذه الأسفار من مادة تلقى ضوءاً على شتى جوانب المجتمعات في أوربة والشرق على السواء، وعمدنا بذخيرة طيبة من المعلومات التي نفتقدها في الكتب السياسية والحوليات التي تكون — في العادة — قد دُوِّنت تحت دوافع معينة، فنطمس أحياناً — عن قصد وتدبير — أموراً لو نكشفت لبدت نواحي كثيرة من التاريخ المدون، ومجمل القول إن كتب الرحلات ترقى إلى أن تكون من المصادر الأصلية في تبيان الأحداث الرئيسية والجانبية الغامضة وتنقلها من هامش الفكر إلى بؤرة النظر والإدراك الصحيح والتفسير المعقول المطابق لحقيقة الواقع، ثم إنها لا تخلو — بنسب متفاوتة بين بعضها والبعض الآخر — من مادة لا تتوفر في سواها، وذلك بسبب تفلغلها بين طبقات الشعب التي قلَّ أن تعباؤها كتب التاريخ المألوفة، ومن ثم كانت الرحلات ذات أهمية خاصة من حيث العنصر التاريخي، وهي في الوقت ذاته تكون — في أغلب الأحيان — بعيدة عن التحيز؛ هذا إلى أن ما تتضمنه إنما هو نتيجة مشاهدة عيان في أكثرها.

ولقد اهتم الغرب بالرحلة منذ ظهور الإسلام اهتماماً يستره لهم سعة الرقعة الإسلامية العربية الجديدة، ودفعهم إليه رغبتهم في الوقوف على أحوال

شعوب هذه الأقطار والتعرف عليها عن قرب ، إلى جانب عوامل اقتصادية تتمثل على وجه الخصوص في التجارة أو كعملاء في تناول السلع ، هذا بالإضافة إلى دوافع روحية ، فليس من جدل في أن المسلمين الأوائل كانوا يرحلون من بلد إلى آخر - رغم اختلاف الأقطار - جرياً وراء حديث بأخذونه عن ثقة حجة لا يرق إليه الشك دون اكثرات بما يلاقونه في سبيل ذلك من مشقة بالغة وما يصادفونه من أخطار الطريق ، وما يصيبهم من مكابدة مادية تكاد تجعل المطمع عسير التحقيق ، والمنشود صعب المنال ؛ ولا مشاحة في أن تاريخ العرب حافل بالرحالة الذين نعرف أسماءهم وإن ضاعت آثار معظمهم ، وبقي البعض منها كاملاً غير منقوص أو في صورة ننف مبعثرة في ثنايا الكتب ، وهي جديرة بأن يتوفر البعض على جمعها عسى أن تكون منها ومن الآثار الخطية الكاملة مكتبة تامة - أو شبه تامة - تستدرك نواقصها على مرة الأيام .

ولقد شهد الغرب - كما شهد الشرق - رحالة كثيرين ، نعل أذيعهم ذكرراً التاجر البندق «ماركوبولو» ثم «نيكولو دي كونتي» ، وهناك من هؤلاء أيضاً «بيرو طافور» الذي أتاحت له الفرصة أن يرحل في النصف الأول من القرن الخامس عشر إلى كثير من بلاد أوربة وإلى مصر سفيراً وباحثاً وتاجراً ورجلاً متطلماً لمعرفة حقيقة عالم يومه الجغرافي والسياسي والديني ، ولقد كانت هذه الفترة فترة إرهاب في تاريخ الإنسانية إذ كانت فجر عهد جديد من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية ، فقبل أن يلفظ ذلك القرن أنفاسه بسنوات قلائل سقطت القوة الإسلامية في الأندلس ، وأخذت بعض دول أوربة تتكتمل لمضايقة مصر اقتصادياً لتمطيلها عن ممارسة نشاطها التجاري لاسيما في تجارة

الكارم ، كما قامت محاولات أخرى جانبية في هذا الميدان ذاته وقيل ذلك بقرن تقريبا - لمقاطعتها تجاريا أو لتحويل مجرى النيل ، ووضعت في كل هذا تقارير مختلفة على مستويات عالمية سياسية ودينية .

وعلى الرغم من أن صاحب هذه الرحلة كان أميراً لدى ملك قشتالة إلا أن الغموض يكتنف سنوات طويلة من حياته ، والواقع أن ما كُتب عنه حتى الآن لا يشفي غلة المعنى بوضع ترجمة وافية له تُلَمِّدقائق عمره وتعتبر سجلاً له ، أو تتضمن الأعمال المختلفة التي قام بها ؛ وأقد كانت ضالّة المادة عنه مؤدبة إلى عدم التأكد من مهبط رأسه ، فالإبهام الشديد يغشى السنوات الأولى من نشأته ، ويمتد هذا الغموض حتى ليغلف سنة مولده ووفاته ومعظم الأعوام التي عاشها

ويرجح الذين كتبوا عنه - وهم قلة - أنه وُلد في قرطبة ، ويستدلون على صحة هذا الرأي ببعض الوثائق التي جمعها أحد الكتاب الإسبان وإن كانت الإشارة فيها ليست صريحة كل الصراحة بدرجة تقطع الشك وتثبت اليقين بقرطبية مولده ، وإنما كان عمل الأب فيها وإن كنا لا نعرف أُنْتُفِحت عيّناته - هو الآخر - فيها أم أنه طارىء عليها ، وهل وُلد ابنه « بيرو » وهو لا يزال في قرطبة ؟ أم أنه نزع عنها - بسبب ما - إلى بلد آخر ؟ ، وإن كان « بيرو » نفسه قد أشار في رحلته هذه إلى مقابلته لمرّج السلطان برسباي ، وهذا المرّج أشبيلي الأصل ، وذكر له رحالتنا أنه هو ذاته وُلد في مدينة أشبيلية .

ولا يستبعد في هذه الحال أن يكون الأب « خوان دياز طافور » قد انتقل بالأسرة من قرطبة إلى أشبيلية حيث وُلد له « بيرو » ، وبذلك لا يكون

ثم شك فيما قاله طافور عن أشبيلية مولده؛ ثم إنه ليس هناك ما يدعونا لإنكار رأيه حول مكان ولادته^(١) إذ لا نستطيع في نسبته إلى إشبيلية — مكانا كانت فيه أول صرخة له — ما يجعلنا ننزل قوله عن مكان مولده منزلة الزعم؛ ونستطيع أن نخلص من هذا إلى الأخذ بأن أشبيلية كانت البلد الذي خرج فيه إلى الحياة .

وإذا كان الجدل قد قام حول مهبط رأسه فإن هناك تشككا حول عام مولده ، فليس هو بالمعروف على وجه التحقيق ، وإن رجح القول بأنه كان في مطلع القرن الخامس عشر ، والمتفق عليه أنه كان سنة ١٤١٠ م وأنه عاش قرابة ثلاثة أرباع قرن ، إذ يُستدل من بعض الوثائق التي جمعها أحد الكتاب (واسمه رفائيل رميز) — ومن بينها وثيقة بقلم زوجة طافور — أنه مات حوالي سنة ١٤٨٤^(٢) .

وقد انخرط « بيرو طافور » في سلك الخدمة العسكرية في « جيان » تحت لواء لويزدي قزمان الذي يهديه كتابه^(٣) هذا ، وحارب معه فيما بين عامي ١٤٣١ ، ١٤٣٢ حتى إذا عقدت الهدنة بين غرناطة وقشتالة قام برحلته هذه التي امتدت من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩ ، فلما عاد منها استقر في قرطبة وتزوج

(١) يذهب Letts : Pero Tafur, Trevels and Adventures, p. 8

إلى أن ما قاله طافور لترجم السلطان من أنه من مواليد أشبيلية إنما كان الدافع له عليه هو رغبته في أن ينال عطفه ورعايته ، لأن المترجم اليهودي كان هو الآخر أشبيلي المولد .

(٢) cf. Boletin de la Real Academia de la Historia, Vol. XII, pt. IV, 1902.

(٣) J. de la Serna & Palencia : Historia de la Literatura Espanola, Madrid 1949, p. 95. وأشكر في هذا الموضع صديق الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي وقد أمدني ببعض المراجع الإسبانية المتعلقة بطافور وقام بترجمتها .

في سنة ١٤٥٢ م Dona Juana de Horozco التي أنجبت له ثلاث بنات وولداً ، ويرجح أن ابنه مات قبله .

والظاهر أن طافور كان يعتقد أنه من ذرية أباطرة الدولة الشرقية ، وتؤكد هذا إشارته إلى أن من بين أسباب زيارته القسطنطينية « رغبته في استكناه حقيقة نسبه الذي أنجب عنه أنه نبع في الأصل من هذا المكان ، وأن له عرقاً يمت للعرق الإمبراطوري بوشيجة القربى » ، ثم يسوق قصة لا نعرف مصدرها التاريخي بشأن نزاع قام بين أحد الأباطرة والنبلاء ، وانضم ابن الإمبراطور إلى صفوف الآخرين ، وبعد مصادمات عنيفة بين المتنازعين اضطر الأمير الشاب للفرار إلى إسبانيا ، حيث عرف باسم كونت « بدور » ، وأنجب ابناً سماه دوق « استيفان إلان » واستقر به المقام في قشتالة ، وتزوج الأمير الحارب من إحدى أخوات ملكها ، وأكرمه أهلها لما أبداه من براعة في الحرب ضد المسلمين ، ورد طليطلة للطاعة حين تمردت على ملكهم الشرعي ، حتى إذا مات هذا الأمير دفنه القوم في كنيسة الملوك القدماء في طليطلة ، وزينوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته » ، وهي ذات الأسلحة التي يحملها مؤلفنا طافور لأنه يمت بعرق إلى هذه الأسرة ، ونحسب أن خيال طافور كان أبعد من الواقع في هذه الناحية ، وإن كان هو يزعم أن حنا باليولوجس الثامن قد وافقه على ذلك .

ومها يكن الأمر فقد شغل طافور نفسه بالأمور السياسية في بلده ، إذ نراه يساهم في حملة هنري كونت لبله ، التي شنّها على المسلمين في جبل طارق ،

ولكنه لقي حتفه أمام عيني طافور الذي يمتدحه ويقول في هذه المناسبة .
« انكفأنا راجعين يرمضنا الحزن لفقدنا هذا القائد الحنك ، واثنيينا قافلين
إلى قشتالة ومنها إلى سان لوكار^(١) » . ولقد كانت حملة السكونت على جبل
طارق حلقة من سلسلة الجريبات العدوانية التي كانت تحرك أوربة الغربية
لإسبانيا والبرتغال في ذلك الوقت، والتي بلغت ذروتها في إسقاط قرطبة
والحكم الإسلامي عام ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) .

* * *

استغرقت رحلة طافور الفترة الممتدة من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩ ، وهي فترة
خصيبة من حيث الحركات التي شهدتها وسبقها ، وكان مجال رحلته ببعض
الأقطار الأوربية ومصر ، ولقي في هذه السفرة الطويلة أحداثا عجيبية تصور بجلاء
مدى ما كانت عليه أوربة حينذاك من تأخر فكري وفوضى سياسية ، وقد
أتاح هذان العاملان الفرصة الطيبة لظهور الإقطاع الذي استشرى بصورة
خطيرة في تلك القارة ، والواقع أن الفوضى السياسية التي عمتها لم تنفخ بظهور
الإقطاع بل لازمته وصحبه ، وإن ظهرت في صور جديدة في شتى الأقطار
الأوربية إذ ذاك ، وإنما أخذ نجمها في الأقول بظهور بعض شخصيات
استطاعت أن تجمع السلطة في يديها دون الأمراء والنبلاء والكونتات
والأدواق ، ولكن هذه الشخصيات لم تستطع أن تحرر نفسها من الطابع
الإقطاعي وإن كان بشكل يختلف عن سابقه ، وتمثل هذا في قيام هنري الثاني
بإنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩ م) وفيليب أغسطس بفرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣)
وفردريك بربروسة في ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) ، وكان المظهر الذي

(١) انظر الرحلة ، ص ٣ .

ظهرت به هذه الفترة بالذات — أعنى منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر حتى الربع الأول من الخامس عشر — هو استتباب النظام النسبى، وكان إلى جانب ذلك تضخم شأن الكنيسة وازدياد كوادرها وتمدها حتى لقد أصبحت على حد قول أحد المؤرخين المحدثين^(١) — « دولة مركزية منظمة، امتدت سلطتها القضائية على شتى الأخطاء والجرائم »، على أن هذه البيروقراطية الكهنوتية لم تلبث أن وجدت من يعارضها بظهور جماعات عن اصطلاح العرف التاريخى — المستمد أصوله من إحياءات القرون الوسطى — على تسميتها بالمهرطقة الذين كرهوا فى الواقع امتداد سيطرة رجال الدين خارج نطاق واجباتهم الدينية، واتساع نفوذهم اتساعا شمل جميع مرافق الحياة الآدمية اليومية، وأصبحت الكنيسة تسيطر — بفضل ما ادعته من حقوق وخاصة هبة قسطنطين المزعومة — على مقدرات الفرد^(٢).

على أن هذه الحركات المعارضة لسلطان رجال الدين — وليس للدين نفسه — وجدت استجابة من نفوس فئات قليلة، لكنها كانت ذات أثر بارز أدى فى النهاية إلى ازدياد التضارب بين السلطتين الزمنية والروحية، وضعف سلطان الكنيسة، بل إن هناك من كبار رجال الدين من وقفوا ضد البابوية، ونرى إيماءة بسيطة لهذه الناحية فى رحلة طافور حيث يشير إلى ما جرى بين « مجمع بازيل » وبين البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧ م) فقد خلعه المجمع، ووقف « لويز دى أمارال » المعروف بأسقف « فيزو » فى صف القوة الزمنية، حتى لقد كان على رأس السفارة التى غادرت البندقية إلى القسطنطينية

Flick : Rise of Medieval Church, pp. 603—604. (١)

Thorndike ; Hist. of Medieval Europe, pp. 197 ff. (٢)

للملح الامبراطور يوحنا الثامن وبطرك القسطنطينية لحضور جلسات هذا الجمع .

ولقد تضمنت الرحلة في ثناياها — وفي مواضع متعددة من الكتاب — إشارات إلى مثل هذه الأمور التي كانت تسود أوربة في ظل نظام منهار من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك صورت المدى البعيد الحزن من الضعف الذي بلغته الإمبراطورية البيزنطية التي سقطت نهائيا بعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء رحلة طافور ، ولم تسكن الإمبراطورية في الغرب أحسن وضعا من مثيلتها في الشرق ، فقد بلغت ذروة الضعف بموت سيجسمند ثم ابنه ألبرت الهابسبورجى الذى استقبل طافور في برسلاو ، ولقد أدرك طافور مبلغ قوة العثمانيين إذ ذاك ، وهو فى كلامه عنهم يظهر تقديره إياهم وإعجابه بهم ، ولم يفقه ذكر الأحوال فى أرمينية وسيطرة مصر التجارية فى البحر الأحمر ثم فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، هذا إلى نفوذها وصلاتها بالحيط الهندى ، وأشار فى صراحة إلى ما كانت تمنيه الكنيسة الرومانية ومنازعاتها مع الإمبراطورية الغربية .

* * *

أول ما يلاحظ على رحلة طافور أنها خلت من ذكر التواريخ التى تساعد من غير شك على تحديد قيامه بها وأوقات زيارته للأماكن المختلفة التى تضمنتها سفرته الطويلة لأقطار متعددة يخالف بعضها بعضاً فى كثير من مفاحى الحياة وأساليبها ، غير أن ذكره بعض الأحداث الهامة وملاقاته لأشخاص معينين أمران قد يسرا لنا أن نعرف متى قام بهذه الرحلة الممتعة ، ذلك إن إشارته فى مستهل رحلته إلى حملة كونت لبله على طارق وملاقاته الموت غرقاً تجمعلنا واثقين

من أنها بدأت في سنة ١٤٣٥ ، إذا أنه شرع في رحلته قبل موت كونت هنري الذي حدث في مستهل سنة ١٤٣٦ كما يرجح أكثر المؤرخين ؛ وإلى جانب هذا نعرف من رحلته أنه في أثناء وجوده في جنوة ثار أهلها على دوق ميلان الذي نصب من نفسه حاكماً عليها ، وإن كان ذلك قد تم أيضاً برضاء الجنوبيين أنفسهم ، والمعروف أن جنوة قاست كثيراً من الخضوع للمحتل الأجنبي ، فاستسلمت آونة للآلمان ، ثم لأهل نابلي ، ثم لأهل ميلان من بعدهم ، وعلى أية حال فقد كانت ثورة جنوة ثورة عارمة ترجع إلى سبب هام هو أن مملكة نابلي كانت قد آلت إلى ألفونس الأراجوني الذي أصبح إيطالياً في مشاعره واتجاهاته مما دعى الأهالي لتلقيه « بالعظيم » ، لقباً استحقه عن جدارة بفضل عطفه على الآداب والفنون ، غير أن هذه المملكة كانت تتنازعها في الأربعينات من القرن الخامس عشر أحزاب « أراجون » و « أنجو » ، وإذا كانت جنوة تنظر بعين الاعتبار بطبيعة الحال للفوائد المادية المترتبة على نشاطها التجاري ، بالإضافة إلى عداوتها التقليدية للأراجونيين فقد خيل إليها أن صالحها يقتضيها الوقوف إلى جانب « أنجو » ، وسلكت بالفعل هذا السبيل ، وطبيعي أن يؤدي ذلك الاتجاه من جنوة إلى غضب « ألفونس الأراجوني » ملك نابلي ، ومن ثم كان لابد من اصطدام الجانبين بعضها ببعض أن أجلاً أو عاجلاً ، وحدث ذلك الصدام يوم ٥ أغسطس ١٤٣٥ أمام جزيرة « بونزا » حيث دارت الدائرة على ملك نابلي « ألفونس » ، ووقع أسيراً في أيدي الجنوية ، كما وقع في الأسر معه بعض كبار وجوه مملكته ، فأسلبهم إلى دوق ميلان « فيليبو ماريا » الذي سرعان ما أطلق سراحه هو ومن معه ، مما أثار حنق الجنوية وغضبهم على « فيليبو » ، واندلعت هذه الثورة يوم ٢٧ ديسمبر ١٤٣٥^(١)

J. C. De Sismondi : Hist. of the Italian Republics , (١)
pp. 209 — 210 .

ومن هذا نستدل على أن طافور كان في جنوة في تلك السنة^(١).

ثم إنه يشير في موضع آخر^(٢) إلى إبحاره من البندقية إلى الأرض المقدسة وكان ذلك يوم الاحتفال بعيد الصعود ١٧ مايو ١٤٣٦ ، وفي نوفمبر من العام التالي ١٤٣٧ زاره في القسطنطينية حين أبحر إمبراطورها يوحنا الثامن باليولوجس، الذي قبل - خوفاً من ازدياد سلطان الترك - توحيد السكيبستين اليونانية والرومانية ، لكن رجال الكنيسة الشرقية رفضوا هذا الاتفاق واستقبلوا الإمبراطور بعد عودته بشتى أنواع الإهانات .

* * *

وإذا كان طافور قد بدأ رحلته هذه في سن مبكرة ، إذ كان وقتئذ يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، وهى سن لا تمكن صاحبها من رصد كل شيء براه رسداً دقيقاً وبصورة تفضن تحليل الأحداث تحليلًا صحيحاً ، إلا أنه استطاع - فى كثير من الدقة - أن يصف كل ما وقعت عليه عيناه وأحسه بوجدانه ، ومع أن هذا الوجدان كان بسيطاً بل ساذجاً فى أكثر من موضع إلا أنه يشير فى وضوح إلى أن صاحبه كان فى الوقت ذاته رجلاً قد تمرس بشتى أساليب الحياة ، وليس من شك فى أنه اشتغل بالتجارة على نطاق أوسع من النطاق المحلى ومارسها ممارسة عملية ، ولا يستطيع هو - أو غيره - إنكار هذه الصفة . فصفحات رحلته تفيض بما يكشف القناع تماماً عن قيامه بعمليات تجارية ضخمة يستخدم فيها رجالاً لحسابه الخاص ، وإن عمليات المقايضة التجارية لتقلب عليه - رغم تدينه - فيقدمها على حضوره الصلاة والقداس ، ولكنه

(١) رحلة طافور ، ص ١١ .

(٢) رحلة طافور الفصل الخامس ، ص ٤١ .

لا يكاد يفرغ منها حتى يهرع إلى الكنيسة ليؤدى واجب الرب ، كما أذى حقوق الفرد الإنسان .

كذلك نستدل من كتاباته على حبه للرحلة حباً جرى في دمه وحمله على الاعتماد بالأخطار ، فقد توسل بشقى الوسائل حتى استطاع أن يحصل على إذن بزيارة دير سانت كاترين ، فاستجاب له السلطان الأشرف برسباى وأمدّه بثلاثة جمال وسار عابراً الصحراء « التى لا حياة فيها ، ولقينا فى ذلك مشقة كبرى واكتنفنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدة حداً عجبت منه كيف يستطيع أى امرئ احتمالها » ، واستغرقت هذه الرحلة الشاقة منه خمسة عشر يوماً ، ثم إنه وهو فى سيناء تشاق نفسه لزيارة الهند ، ويحاول قيم دير سانت كاترين ثنيه عن هذا الفرض ويعارضه « كل المعارضة » لكنه لا يلقى إليه سماً ، وإنما ينتظر وصول القافلة القادمة من الهند التى يلتقى بأحد رجالاتها وهو « نيكولو دى كونتى » الذى يحدثه عن أخبارها وعجائبها وثرواتها ، ولكنه لا يكاد يعلم منه بإزماعه المضى إلى هناك حتى « يفضى إليه فى الحال بوجوب التخلي عن تلك المحاولة التى لا يمكن إنجازها مهما صدقت النية ^(١) منه » ، ويقول له فى ختام حديثه ناهياً إياه عن السفر إليها « إني أستحلفك بالله . . . أن لا تركب هذا المركب الجنونى نظراً لبعدها الشقة ، وجسامة المشقة ، وفداحة الخطر » ، ثم يمدد له « نيكولو » الصواب التى تجعل من سفره وحده أسراً مستحيلاً ^(٢) .

(١) رحلة طافور ، ص ٧٨ .

(٢) انظر الرحلة ، ص ٨٠ .

وإن حبه للمخاطرة ليتجلى في رغبته في رؤية السلطان العثماني في عقر داره، فيلتبس الإذن في ذلك من « دراجس » نائب الإمبراطور يوحنا الثامن ، ويستجيب له « دراجس » ويرسل في طلب فئة من التجار الجنوية ليدبروا لصاحبنا رؤية السلطان مراد الثاني الذي يبعث في طلبه حين يعلم بخبر مقدمه ، فيلتقي به ويضمن صفحات رحلته وصفه الجماني ووصف حاشيته وكيفية إقامته وخروجه للصيد، بل إنه ليدخل معسكرات الأتراك ويلم بكل ما فيها ، ويصف ذلك كله وصفاً دقيقاً ربما فأت الكثيرين ممن عاشوا في البلاط العثماني أن يذكره تفصيلاً كما ذكره طافور ؛ وأيس من شك في أن بصيرته الملمحة قد ساعدته على وصف القاهرة وشوارعها الحافلة إذ ذاك وأسواقها وما بها من مختلف التجارات الواردة من شتى أنحاء العالم، كما يصف الحلاقين والطباخين، ولا يفوته ذكر الفواكه وأطباق الحشى والسقائين ، وهذه صور انقرض الكثير منها ولكنها كانت يومذاك مألوفاً ، وإنه ليضيف إلى معلوماتنا عن الإسكندرية شيئاً جديداً حين يشير إلى «مكان كبير بمينائها لاستقبال النصارى القادمين والراجلين على السواء» ، ثم يشير إلى دمياط حيث يطلب من واليها جلد تمساح سألَه إياه ملك قبرص، ولا تفوته النكتة هنا فيقول « إن رأحتَه (أى رأحة الجلد) كانت شديدة الكراهية، ولم يكن أحب إلى نفسى من أن آخذ معى ابنة والى اللاطيفة بدلاً من جلد هذا التمساح» .

والرحلة حافلة إلى جانب ذلك بوصف المدن الأوربية التى زارها طافور ، وهو وصف فريد فى مادته من حيث القيمة التاريخية .

. . .

أما الرحلة نفسها — كما كتبها طافور — فقد ظلت مدة أربعة قرون رهن الظلام حبيسة المخطوطة ، ولم يقيض لها أن ترى النور إلا فى سنة ١٨٧٤

حين قام الأديب الإسباني Marcos Temerez de la Espada (المتوفى عام ١٨٩٨) بنشرها لأول مرة باللغة الإسبانية تحت عنوان *Andarçgas é viajes de Pero Tafur per diversas partes del Mundo avidos (1435-1439* أى رحلات ومشاهدات بيرو طافور لأجزاء مختلفة من العالم (١٤٣٥-١٤٣٩) ، على أنها لم تلق ما تستحقه من الاهتمام الجدير بها ، فلم تظهر لها سوى ترجمة واحدة كاملة باللغة الإنجليزية قام بها «مالكولم لينس» عام ١٩٢٦ ونشرت في مجموعة *Broadway Travellers* التي كان يشرف عليها سير دينسون روس والأستاذة إيلين باور بعنوان *Pero Tafur : Travels and Adventures* ، أما الترجمة الكاملة الثانية فهي هذه الترجمة العربية .

على أن هناك طائفة من العلماء والؤرخين والباحثين الأوربيين استعملوا النص الإسباني استعمالا مجزؤاً ، وكان أولهم الوثائقي «ماس لاترى» ، إذ اعتمد عليها بعد عشر سنوات من ظهورها في صفحتين فقط في كتابه « تاريخ أساقفة جزيرة قبرص اللاتين *Histoire des Archeveques Latins de l' ile de Chypre* (Arch . de l' Orient Latin, II , Paris (1884 : ثم وردت الإشارة إليها في السنة التالية (١٨٨٥) حين استعمل منها العالم الألماني « هايد » ماجاء بها من معلومات خاصة بالتجارة وذلك في دراسته القيمة الفذة لهذا الموضوع الذي اعتمد فيه كلية على المصادر والوثائق الأولية في مختلف دور المحفوظات الأوربية وخطبات العصور الوسطى وضمنها كتابه *Histoire du Commerce du Levant au Moyenage* . وكان استعماله للمادة التي ذكرها طافور - نتيجة مشاهدته وخبرته - على مجال أوسع من مجال سابقه « ماس لاترى » .

فلما كان مطلع القرن الحالى عهد المؤرخ الألماني شولته فوضع كتابه المسمى

Geschichte der Mittelalterlichen Handels und Verkehrs zwischen Westdeutschland und Italien mit Ausschluss von Venedig (1900)

وفيه تكلم عن مدينتى بروجس وأنتورب وتضخمهما التجارى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وأسواقهما المختلفة والبضائع الموجودة بهما ، متخذاً مما ذكره طافور فى رحلته هذه مادة لدراسته ووصفاً لمشاهد عيان لا يرقى إليها الشك فيما احتوته من أخبار .

°

ثم جاء العالم الفرنسى المؤرخ هنرى بيرين فرسم فى كتابه History of Belgium صورة ثانية لهاتين المدينتين السالقتين الذكر وأهميتهما وتوسعهما التجارى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى معتمداً فى ذلك على رواية طافور ، ولكنه نقل كل ما جاء عنهما سلفه « شولته » الألمانى ، ولم يستعمل هو نفسه النص الأصيل الذى نشره « لا إسبادا » ، ومع ذلك فقد جاء عرضه وتحليله واستنباطاته دقيقة فى عرض ملامح الازدهار التجارى لأنتورب وبروجس ؛ فلما كان ختام الربع الأول من القرن الحالى نشر ولیم میلٹر بحثين فى المجلة التاريخية الإنجليزية (English Historical Review. 1923 & 1926) جعل محورهما إمبراطورية طرابيزون ، معتمداً على ماورد بشأنها فى رحلة طافور .

ثم كانت بعدئذ ترجمة مالسكولم ليفس فى سنة ١٩٢٦ التى قدّم لها بمقدمة استعرض فيها فصول الرحلة ، وقد ترجمها عن الإسبانية وزوّدها بكثير من الحواشى التى أصاب فى معظمها وجانبه الصواب فى القليل منها ، ولكنه استطاع بهذه الترجمة الإنجليزية أن يجعلها قريبة إلى يد الكثيرين من الباحث والقراء الذين تقف الإسبانية حائلاً بينهم وبين مطالعتها والاستفادة منها بالصورة المرجوة ، ولقد كانت هذه الترجمة الإنجليزية حاملة للمؤرخ الروسى

(ت)

فازيلييف Vasiliev على كتابة بحث له في مجلة ييزانتيوم (١٩٣٢) أشار فيه إلى زيارتي طافور للقسطنطينية، واكتفى فازيلييف باقتباس صفحات مطوّلة من الرحلة شغلت معظم المقال، كما أشار في الوقت ذاته إلى الاختلافات البسيطة بين الأصل الإسباني وترجمة ليتس .

نستدل من هذا الثبوت على أن استعمال «رحلة طافور» كان مجزؤاً . ولكن هذا الاستعمال بواسطة أعلام البُحَثّات وجهابذة المؤرخين يشير بجلاء إلى القيمة الضخمة التي ضمّنها طافور كتابه ، والتي كانت المصدر الأساسي لدراسات عميقة متزنة ؛ على أن هناك جوانب أخرى ما زالت مطوية وأخصها الأوضاع الاجتماعية وأساليب الحياة اليومية في البلاد والمدن التي زارها رحالتنا ، وهي جوانب تعتبر ملامح صريحة وجديرة عن ذلك العصر وتلك البقاع ، وعنى بهذا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فقد تناول هذه الناحية في دراسته عن (العصر المماليكي في مصر) ، واستعمل الرحلة في إمداده بمادة جديدة عن القاهرة حينذاك ، وكذلك الدكتور أحمد درّاج في رسالته عن عهد السلطان برسباي . وإن الصفحات التي تركها طافور عن القاهرة لجديرة بأن تكون نواة لبحث أو بحوث تضيف جديداً إلى معلوماتنا عن مصر القرن الخامس عشر .

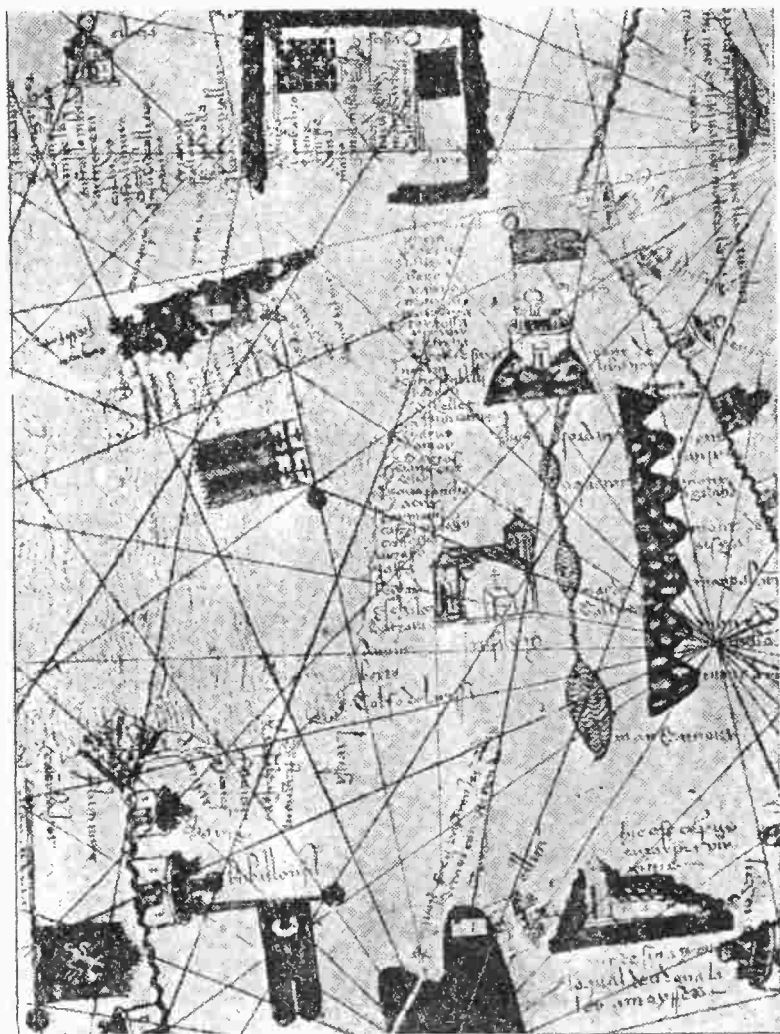
* * *

وبعد فإني أقدم هذه الرحلة لأول مرة في لغة الضاد ، راجياً أن تكون معواناً للبحاث ، ومن الله التوفيق ؟

حسن حبشي

(ض)

إمضاء طافور من وثيقة
محرورة في أرشيفات قرطبة



قسم من خريطة كتلاية للعالم سنة ١٢٧٥